قصة الإفك

ضرب الليل روَاقَه على الصحراء وكساها رِدَاءً من السُّكون، فصارت قطعة سوداءً مظلمةً، لا يكادُ السارِي فيها يَرى رفيقَه، وهي فضاءٌ هادِىء، حتى لتكادُ الأذنُ تسمَعُ دبيبَ الدابة، وحركة النملة إذ تَسير.

ويظهر فيها بدويّ مُلْتفٌ في ردائه، يُعْمِل[1] الناقة، ويجتهد في السير، وكأنه مطلوب هارِب، أو طالبٌ مُجِدّ. . . وكان صفوان بن المعطّل السُّلَميّ قد تخلّف لبعض حاجته عن جيش الرسول، وهو عائدٌ من غَزْو بني المُصطَلِق إلى المدينة؛ وهو الآن يطلبُ القومَ ليلحقَهم، ويقْفُوَ أثرهم ليسير معهم، ولكنه يَلْمَحُ في سيره شخصاً ملتفًّا في ثيابه، مطويًّا على نفسه، وهو غارِق في نومه. وكأنه ذاهبٌ في أحلامه، فنزل عن ناقته، واتّجه صَوْبه؛ يمشي على أطرافه؛ خشيةَ أن يُفْزِعَه أو يُخيفه.

وما كان أشد ذهوله، وأعظم دهشته، حينما تبيَّن الشخص، فإذا هو عائشة أم المؤمنين؛ مغرقةً في نومها، ملتفةً في ثوبها، في هذا المَهْمَة[2] القفر، والظلام الحالك، ولم يستطع أن يملكَ صَيْحته، أو يكتم دَهْشَته، فصاح: إنا لله وإنا إليه راجعون! ظعِينة[3] رسول الله ﷺ! فاستيقظت عائشةُ مذعورةً على تَرْجِيعه وصَوْته، وخمَّرت وجهها بجلْبابها فقال لها: ما خَطْبُكِ يرحمك الله! فما استطاعَتْ أن تردّ عليه جواباً، حياءً وخجَلاً، ثم قدّم إليها راحلتَه فركبتها، وأخذ هو بزِمَامها، وانطلق يطلبُ رسولَ الله، وظلَّ طريقَه ما التفت إليها ولا حدَّثته نفسُه بحديثها، حتى أدرك القوم مُعَرِّسين[4] في الظَّهِيرة.

وسألها رسولُ الله: ما خَطْبُها؟ وفيم تخلُّفها؟ قالت: سمعتُك ليلةَ الأمس تؤذِّن في

---

(١) أعمل آلته: عمل بها، أعمل الناقة: أجهدها.

(٢) المهمة: المفازة البعيدة، أو البلد المقفر.

(٣) الظعينة: الزوجة.

(٤) عَرَّسَ المسافرون: نزلوا آخر الليل للراحة.

القوم بالرحيل، فذهبتُ لقضاء بعض شَأني، ولما عُدْتُ إلى رَحْلي تفقّدْتُ عِقْدي فإذا هو قد انسلّ من عنقي، فذهبت في طَلبه، ولما عُدْتُ وجدتُ القومَ قد ارتحلوا، ما فيهم داعٍ ولا مجيب، فتلففتُ في ثيابي، ولزمتُ مكانَ رَحْلي، لعكلم إذ تتفقّدونني فلا تجِدونني تعودُون في طلبي، ثم ضرب الله على أذني فنِمْتُ، وما استيقظتُ إلا على صوتِ صفوان.

وصدَّقها رسول الله في حديثها، ولم يخالطه الشكُّ في أمرها؛ إذ هي عائشة بنت أبي بكر في شرَفِ مَنْبتها، وطهارةِ عِرْقها، وهي هي عائشة زوجُ رسولِ الله في عفّةِ أديمها، وكَرَمِ دِخلتها[١].

حَصَانٌ رَزانٌ ما تُـزَنُّ[٢] بـريبـة ... وتصبحُ غَرْثَى[٣] من لحوم الغَوَافِلِ
عَقيلة حيٍّ من لؤي بن غالب ... كِرَام المساعي مَجْدُهم غيرُ زائل
مهذبة قد طَيَّب الله خِيْمَها[٤] ... وطهَّرها من كلِّ سوءٍ وباطل

أما عُصْبَة الكذب وجماعة السوء فإنهم ما رأوا عائشة يقودُ راحلتها صفوان مُقْبلين من الصحراء حتى أخَذُوا يتخرَّصُون[٥] الكَذبَ، ويقعُون في شرف عائشة، ويتهمونها في صَفْوان.

قال عبد الله بن أبيّ حينما رآهما: والله ما نَجَتْ منه، ولا نجا منها! وفشت هذه القالة بين الناس، وتبع مِسْطح ابن أبي وتبعهما حَسَّان وزيد بن رفاعة، وحَمْنَة بنت جَحْش، ثم أخذوا يهْضِبون[٦] في القول ويزيدون، حتى بلغ الخبَرُ رسول الله، وسَقط في أذني أبي بكر، وتحدَّث به الصغير والكبير، والدَّاني والبعيد.

وظلَّ القومُ في هَرْجهم ومَرْجهم، واتِّهَامهم ودفاعهم، وشكِّهم ويقينهم، حتى

---

(١) الدِّخلة من الإنسان: داخلته وطويته.
(٢) تزنّ: تتهم.
(٣) غرثى: جائعة.
(٤) الخيم: السجية والطبيعة ـ أو: الأصل.
(٥) تَخرَّص: تكذَّب بالباطل.
(٦) أهضب في الحديث: خاض فيه مرة بعد مرة.

وَصَلوا إلى المدينة؛ كلُّ هذا وعائشةُ لا تعرف شيئاً مما في نفس القوم، ولم يقع لها كلمةٌ مما خاض فيه الناس، ولكنها حين ذهبت إلى بيتها تخوَّنتها الحمى، ومَسَّها المرض، فلزمت الفراشَ، وتلمَّسَت الشفاء، وترقّبت من رسول الله ﷺ ـ كما اعتادت ـ قلباً عطوفاً، ورحمةً مبسوطة الجناح؛ فما ظفرت منه إلا بنظرة خاطفة وسؤال قصير: «كيف تِيكم؟» لا يزيدُ على ذلك، فأهمها وأكرَبَها، وزاد من سقمها، وضاعف من علتها.

ما بالُ رسول الله لا يَرِقُّ لحاها، ولا يرثى لمرضها، ولا يَحفُل بشأنها؟! ذلك ما لا تعرفه عائشة، ولا تستطيعُ أن تربط فيه علّةً بمعلول، أو سبباً بمسبَّب ولهذا استأذنت رسول الله ﷺ لتذهبَ إلى بيت أبيها، لعل في البعد ما يُثيرُ حنانَه، ويعطف من قلبه.

وأذِنَ لها، وقضَتْ في بيتِ أبيها بضعاً وعشرين ليلة، تُعَاني المرض وتحتمل الداء، حتى أبلَّتْ من مرضها واستفاقَتْ من علتها.

وخرجَتْ يوماً إلى فُسَح المدينة ومعها أمُّ مِسْطح بنت أبي رُهْم، وإنهما ليمشيان إذ عثرت أم مسطح في مِرْطها[1] فقالت: تَعِس مِسْطح! قالت عائشة: بئس ـ لَعَمْرُ الله ـ ما قلتِ لرجل شهد بدراً! قالت لها: أو ما بلغكِ الخبر يا بنت أبي بكر؟ قالت عائشة: وما الخبرُ؟ فحدَّثتها بما كان من أصحاب الإفك، وما تَقَوَّل به مسطح وحسان، وما أذاعه ابنُ أبيّ، وما تزيَّدَت فيه حَمنْة بنت جحش. . .

قالت عائشة: أوَكان هذا؟! قالت: نعم، والله كان. . . قالت عائشة: هيَّا بنا نعود، وانكَفَأت[2] إلى البيت تبكي ما تَرْقأُ[3] لها دمعة، ولا تسكُن منها لَوْعة، ثم قالت: يا أماه، يغفر الله لك، تحدَّث الناس بما تحدَّثوا به، ولا تذكرين من ذلك شيئاً؟! قالت: أي بنيَّة، خفضي عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأةٌ حسناءُ عند رجل يحبُّها ولها ضرائر، إلا أكْثرْنَ عليها.

* * *

ومضى شهرٌ ورسول الله ﷺ في حَيْرَة من أمرها، ورَيبِ من قضيتها، يتطلعُ إلى

---

(١) المرط: كساء من خَز أو صوف أو كتّان تتلفّح به المرأة.
(٢) انْكَفَأَتْ: رجعت.
(٣) رقأ الدمع: سكن وجف وانقطع بعد جريانه.

الوَحْي، ويتشَوَّف إلى الرُّؤيا. عله يجد فيهما مخرجاً من أمره، وسكوناً من حيرته، وكشفاً لِشُبْهَته؛ ولكن لم ينزل الوَحْي، ولم تُتَح له الرَّؤيا، فرأى أن يَسْتَفْتي ويستشير...

سأل ﷺ زينبَ بنت جحش ـ وكانت ضَرَّتها، وتزحمها في مكانتها ـ فقالت: أحْمِي سمعي وبصري، والله ما علمتُ عليها إلاّ خيراً.. وسأل أسامة بن زيد، فقالَ: أهلكَ يا رسولَ الله.. وما عَلمنا إلاّ خيراً.. وسأل علي بن أبي طالب، فقال: النساء غيرها كثير، وسَلْ بَرِيرَة جاريتها تصدقكَ الخبر..

وجاءت بريرة، فقال لها رسول الله ﷺ: «**هلْ رأيتِ شيئاً يَرِيبك**»؟ فقالت: لا، والذي بعثكَ بالحقِّ، وما رأيتُ مَنها أمراً أغمصه[١] عليها قطّ، أكثر من أنها جارية حديثةُ السنِّ، تنامُ عن العجين، فتأتي الدَّوَاجنُ[٢] فتَأكله!!

* * *

وفرغ رسول الله ﷺ من استشارة مَنِ استشار، ولم يَرَ في حديثهم شيئاً يَزِنُّ عائشة أو يَصِمُها[٣]، فخرج إلى الناس مُغضباً، وقال: «**أيها الناسُ، ما بالُ رجال يُؤْذُونني في أهلي، ويقولون عليهم غيرَ الحق؟ والله ما علمتُ منهم إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمتُ منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي؟!**».

ثم ذهب إلى عائشة في منزل أبيها، فوجدها تبكي، ووجد امرأةً من الأنصار تبكي معها، وعندها أبواها، فسلم عليها، وقال: «**يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول للناس، فاتّقي الله، فإن كُنْتِ قد قارفْتِ**[٤] **سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبلُ التوبة عن عباده**».

ولكنها لم تستطع جواباً، ثم التفتت إلى أبيها، وقالت: أجِبْ عني رسول الله. فقال: والله ما أدري ما أقول، فالتفتت إلى أمها وقالت: أجيبي عني رسول الله، فقالت: والله ما أدْرِي ما أقول.

---

(١) غمص: حَقَّر.

(٢) دواجن جمع داجن: كل ما ألف البيوت وأقام بها من حيوان وطير.

(٣) وصم يصم: عاب.

(٤) قارف: قارب وخالط.

ولما لم ترَ من أبويها قولاً يَـنْـفَحُ[١] عنها، أو دفاعاً يمزّقُ خيوطَ الشكِّ التي نُسِجَت حولها قالت: والله ما أعلم أهْلَ بيت دخل عليهم ما دخلَ على آل أبي بكر في هذه الأيام.

ثم استعبرت ـ رضي الله عنها ـ وقالت: والله لا أتوبُ إلى الله مما ذكرتَ أبداً، والله إني لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس، والله يعلم إني منه لَبَرِيئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنكرتُ ما يقول الناس لا تُصَدِّقوني. ثم أجهشت بالبكاء، والتمست أن تذكرَ اسم يعقوب عليه السلام فغاب عنها، فقالت: ولكن أقول لكم كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[٢].

فأطرقَ رسولُ الله، وَوَجَم[٣] أبو بكر، وتنهدت أمُّ رُومان، وبينما هم على هذه الحال، إذ تغشّى رسول الله ﷺ ما كان يَتغَشّاهُ حين نزولِ الوَحْي، فَسُجِّيَ[٤] بثوبه وَوُضِعت وسادة تحت رأسه، وعند ذلك علمت عائشة أن الوَحْيَ سيفصل في أمرها، وسيزيح الشكَّ عن قضيتها، فترقبَّتْ رَبِيطة الجأش، ساكنةَ الجوارح؛ إذ كانت عارفة بنفسها، واثقةً من نزاهتها، وطهارة ذيلها.

أمّا أبواها فإنهما أحسَّا رسول الله ﷺ يتلقّى الوحي حتى إنماث قلبُهما من الفزع، وكانت تتزايل أعضاؤهما من الجزع، أن يأتي الوحي بتصديق ما قال الناس.

ثمَّ سُرِّي عن رسول الله، وإنَّ قطرَات مِنَ العرق لتتحدَّرُ منْ جبينه مثل الْجُمَان[٥]، وقال: «**أبشري يا عائشة، لقد أنزل الله براءتك في قرآنٍ يُـتْلىٰ بين الناس**» ثم أخذ يقرأ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾

---

(١) نفح الشيء: دفعه عنه.
(٢) سورة: يوسف، الآية: ١٨.
(٣) وجم: عبس وسكت عن الكلام لشدة الحزن.
(٤) تَسَجَّى: تَغَطَّى.
(٥) الجمان: اللؤلؤ.

إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾
وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟
لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن
تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم
مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾[1].

---

(١) سورة: النور، الآيات: ١١ ـ ٢١.

المنافـقُون

ظهرت رسالةُ محمدٍ ﷺ، فغزَتِ المشاعِرَ وشقَّت القلوب، وتغلغلت في قرارةِ النفوس، واطَّردَ سبيلها في الأرجاء، وانتشر أمْرُها في كل مكان.

لكن ثلاثة مِنْ صنُوفِ الأعداء أخَذُوا يقاوِمُونَها، ويُوقِعُونَ النِّكَاية[1] بها، والكيدَ لها، خوفاً على زَعَامتهم، أو حِرْصاً على رِيَاستهم، أو حَسَداً من عند أنفسهم: مشرِكُو قريش بمكة، واليهودُ بالمدينة، والمنافقون بين الإسلام والكفر.

أما المشركون فقد أعلنوا كُفْرَهم صريحاً، وأبْدَوا عداوتَهم جِهَاراً، وأقاموها حَرْباً لا تنطفىء جذْوَتُهَا، ولا تَسْكن وَقْدَتُها. وأما اليهودُ بالمدينة فإنّهم ما كادُوا يَرَوْن رسولَ الله بين ظهرانَيهم حتى نَفِسوا عليه رسالته، وحسدُوه نِعْمَتَه، وأنكروا زَعامَتَه، وسلَكُوا سبيلَ أشباههم من كفّار قريش، كُفْراً وعِناداً وحَرْباً وعداءً.

فأصبح رسولُ الله ـ من هؤلاء وهؤلاء ـ على المحجَّةِ[2] الواضحة، والعدَاوة الصريحة، يحارِبُهم أحياناً، ويُعَاهِدُهم أحياناً، وهو فيما بين ذلك يَرْجُو أنْ يغلبَهم أو ينتهي بهم إلى الإسلام والإذعان.

وأما المنافقون فقد كانوا قوماً من الأنصار أبناء عُمُومة، أبْطَنُوا الكفر وأضمروا العداء، ثم أعلنوا الإسلامَ وتظَاهَرُوا بالمحبة الصافية، وانتَحلُوا الإخاء المصفّق، واصطنعوا الودَّ المنْخُول، وإنّ قلوبهم لتنطوي على المرض والحِقْد، والغَدْرِ والمكر: زعموا أن سيوفَهم مع المسلمين، صَدَقوا، ولكن قلوبهم كانت مع الكفار، وزَعَمُوا أنهم خالصون خيِّرون، كذَبوا! هم جُبَنَاء أخِسَّاء أشرار ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[3].

---

(١) نكى نكاية: أوقع به.

(٢) المحجَّة: الطريق المستقيم.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ١٤.

لم يقولوا كلمةَ الإسلام في صِدْق فينتظموا في عِقْدِ الأنصار، ولم يُعلِنُوا الكفرَ واضحاً فيُجْرِي عليهم الرسولُ حُكْمَ الكفّار: مُذَبْذَبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ولهذا كانوا أشدَّ ضرراً، وأبلغَ في الأذى أثراً، إذْ أنَّ رسولَ الله ﷺ ما كان في استطاعته إلاَّ أنْ يكتفيَ بظَاهِرهم، ويَكلَ إلى الله ما في سَرَائِرهم، وكان ظاهرهُم السلم والإسلام، وباطنهم الكفر والكُفْران؛ وظَلُّوا على هذا شوكةً في جَنْبِ المسلمين، وقَذًى في العيون، وقرْحة في الأكباد، حتى كان يوم بني المُصْطَلق؛ وعلى مَاء المرَيْسيع[1]، إذا هتكَ الله أستارَهم، وكشف مُخبَّآتِ ضمائرهم، ودَمَغَهُم بآياته، وأظْهَر زائفَهم بكلماته.

* * *

بعد أنْ فرغ رسولُ الله من أمْر بني المصطلِق، ورَدَتْ واردةٌ من الناس تَسْتَقي الماء، وتذود الخيلَ والإبلَ حول ماء يسمُّونه المُرَيْسيع؛ وازدحم الشَّرْب[2]، وتدَافعت الدوابُّ، وضاق المكانُ، وتلاقى على الماء جَهْجَاه بن مسعود الغِفَاري، أجِير عمر بن الخطاب ـ وكان يقودُ فرسه ـ وسِنَان بن مسعود الجُهنيّ، حليف بني عَوف من الخَزْرج، ووقع بينهما ما أثار الشرَّ، وأضرم الغيظ، وهاج البغضاء، فنادى الغِفاري: يا لَلْمهاجرين! ونادى الجهني: يا للأنصار! ودعَوَا إلى جاهليةٍ قضَى عليها الإسلام، وأهابا بعصبية مُنتنةٍ عفَّى عليها القرآن.

اثنان من عِدَادِ المسلمين اقتتلا: واحدٌ من المهاجرين، وواحد من الأنصار، وشَجَر بينهما عدَاء، فما شأنُ المهاجرين، وما شأنُ الأنصار؟ وقد أصبحوا بنعمةِ الله إخواناً، وأحباباً وأعواناً، يَدٌ على مَنْ سِوَاهم، وأمرهُم جميع على مَنْ عَدَاهم، وُدُّهم غيرُ مُتّهم، والعهد بينهم غير مُضَاع؟!

ولكن ما أسرع ما وجدَتْ هذه القالَةُ عند المنافقين روَاجاً، وفي قلوب المتردّدين استئناساً وقبُولاً. وكان عبدُ الله بن أبي بن سَلُول رأسُ الكفر، وكَبْشُ الضلال، وزعيمُ جماعة المنافقين؛ فما سَمَعها حتى هشَّ لها وَبَشّ، ثم راح ينفُثُ لها سمومَ مَكْره، ويُعْلِن مكنونَ غَيظه، ويُفصِحُ عن مُخَبَّآتِ حِقْدِه، وجمع رَهْطاً من قومه ممن لَفّ لَفَّه، ونهج

(١) المريسيع: اسم ماء في ناحية قُدَيد إلى الساحل.
(٢) الشَّرب: القوم يشربون ويجتمعون على الشراب.

سبيلَه، وقال لهم: ما رأيتُ كاليوم مذَلة! أوقد فعلوها؟ نَافَرُونا في ديارنا وكاثَرونا في بلادنا؛ ما نحن والمهاجرون إلاّ كما قال الأول: سمِّنْ كَلْبَكَ يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجَنّ الأعزُّ منها الأذَلَّ، هذا ما فعلتم بأنفسكم، وصنعتُم لأقوامكم!

أما والله لو أمسكْتمْ عنهم ما بأيديكم لتحَوّلُوا إلى غير دِياركم، ونزَحُوا لغير بلادكم؛ أو لا ترون إلى أنفسكم، جعلتُم منكم دونَ محمد أغراضاً للمنايا، وأهدافاً للرَّزَايا، وطلائعَ للخيول، ثم عُدْتُم بالولد اليتيم والطفل اللّطِيم[1]! يا قوم؛ لو أردتم الخير لأنفسكم لا تنفقوا على هؤلاء المهاجرين حتى ينفضّوا، ولا تلاقوهم بوَجْهٍ حتى يظعنوا.

وكان حاضراً مجْلِسَه زَيْدُ بن أرقم، فتًى حديث السنِّ، حسنُ الإسلام، شديدُ الحبّ للرسول، شديدُ الغَيْرة على جَمْع كلمة المسلمين؛ فقام إليه غَيْرَ عابىء بزعامته، أو هيَّاب لمكانته، وقال: أنْتَ والله الذليلُ القليلُ، المبغَّضُ في قومك، المَشْنُوء[2] في عَشيرتك، ومحمد إنما هو في عزّ مِنَ الرحمٰن، وقوةٍ من المسلمين.

ثم قام من فَوْرِه إلى رسول الله، ونفَضَ عليه ما قال عبدُ اللّه؛ فظهرت الكراهيةُ في وَجْهِ رسول الله، واختلج الهمُّ بين عينيه؛ أنْ رأى قَرْنَ الفِتنة بين المسلمين يَطْلُع؛ وأصبع الشيطانِ تلعبُ، ونارَ الشرِّ تَسْرِي وتَدِبّ.

قال الحاضرون من شيوخ الخزرج: يا رسول الله: شيخُنا وكبيرنا، لا تصدِّقْ عليه كلامَ غلام؛ عسى أن يكونَ قد وَهِم. فتلّفت رسولُ الله ﷺ إلى زَيْدِ بن أرقم وقال له: **«لعلك غضِبْتَ عليه»**؟ قال: لا. قال: **«فلعله أخطأ سمعُك»**؟ قال: لا قال: **«فلعلّه شُبِّه عليك»**. قال: لا.

ودَعا رسولُ الله ﷺ عبدَ اللّه بن أبيّ، وقال له: **«أنت صاحبُ الكلام الذي بلغني»**؟ فقال ـ في غير تحفّظ ولا استحياء: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلتُ شيئاً من ذلك، وإنّ زيداً لكاذِب! وهكذا حلف كاذِباً، واتخذَ يَمِينَ الله جُنّة وسِتَاراً، والله يعلم إنه لكاذِب، ومعارفُه تتحدَّثُ بأنه كاذب.

وقال عمرُ بن الخطاب: يا رسولَ الله، مُرْ بقَتْله. فقال رسول الله ﷺ: **«فكيف**

---

(١) اللطيم: من يموت أبواه وهو صغير.
(٢) المشنوء: المبغَض.

يا عمرُ إذا تحدَّث الناسُ أنَّ محمداً يقتلُ أصحابه! ولكن أذِّنْ بالرَّحِيل».

وارتحل الناسُ في ساعةٍ مُبكرة، لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتحلُ فيها، وذلك ليشغلَ الناس عن الفتنة، ويصدَّهم عن دعْوَى الجاهلية، وإذ كان رسولُ الله ﷺ في طريقه لقيه أُسَيْد بن الحُضَير، فدُهِش أن رأى القومَ قد ارتحلوا في ساعةٍ مبكرة، وقال: يا نبيَّ الله، والله لقد رحلْت في ساعةٍ مبكْرَة ما كنْتَ تَرُوحُ في مِثْلها؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**أو ما بلغك ما قال صاحبكم**»؟ قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟ قال: «**عبد اللّه بن أبيّ**»، قال: وما قال؟ قال: «**زعم أنه إنْ رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل**». قال أُسيد: فأنتَ يا رسول الله ـ والله ـ تخرِجُه منها إن شئت، هو والله الذليل، وأنتَ العزيز، ثم قال: ارْفُقْ به يا رسولَ الله، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومَه لينظِمُون له الخرز ليتوِّجُوه، وإنه الآن ليرى أنك قد استلبتَ منه ملْكاً، ونزعْتَ منه رياسة، وهو أبداً من الحسد في هَمّ ناصب(١)، وَقَلْبٍ حانق(٢).

ومضى رسولُ الله ﷺ في سَيْره حتى انتهى إلى المدينة، وما استقرَّ فيها حتى نزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤(٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾(٤).

---

(١) هم ناصب: ذو نصب وتعب.

(٢) حنق: اشتد غيظه.

(٣) يؤفكون: كيف يصرفون عن الإيمان بعد قيام البرهان.

(٤) سورة: المنافقون، الآيات: ١ ـ ٨.

فتلاها رسول الله ﷺ بين المسلمين، ثم قَرَّب إليه زَيداً، وَعَرك أُذُنه، وقال له: «وفَتْ أُذُنك يا غلام، إنَّ الله قد صدقك وكذّب المنافقين».

أمَّا عبدُ اللّه فقد اعترضه ابنُه خارجَ المدينة ـ وكان مسلماً خالصَ الإسلام ـ وقال له: وراءك! والله لا تدخلها حتى تشهدَ على نفسك بالذِّلّةِ وبالعزَّةِ لله وللرسول والمؤمنين. ولكن رسول الله ﷺ قال: «جزاكَ الله عن رسوله وعن المؤمنين خَيْراً»، وأمره أن يُخلِّيَ سبيله، عَلّه أن يتوب.

نبـأ الفـاسِـق

غزا رسولُ الله ﷺ بني المصطلق، وقُتِلَ في الغَزْوِ مَنْ قُتِلَ منهم، ثم أصهر[1] إليهم وتركهم بعد ذلك مُسْلمين، ولما رجع إلى المدينة أرسل إليهم الوليدَ بن عُقْبَة ليأخذ الصدقاتِ منْ أغنيائهم فَيردَّها إلى فُقَرَائهم. ولما سمعوا بقدومه تهيَّؤوا لاستقباله، وخرجوا للاخْتِفَاء به، وكان بين الوليد وبين بني المصطلق إحَنٌ[2] قديمة، وَغِلّ مَوْرُوث، فحسِبَ أنهم إنما خرجوا يريدون به شرًّا، وَيَبْغُون به كَيداً؛ فرجع إلى رسول الله ﷺ يَزْعُمُ أنَّ القومَ قد ارتَدُّوا عن الإسلام، وامتنعوا عن إيتاء الزكاة، وأنهم وقَعُوا في الجّلى والخطيئة العظمى.

فغضب الرسول ﷺ، وغضبَ لغَضَبِه المسلمون، ثم تهيّأ لغزوهم، وردِّهم على أعقَابهم، ولكنَّ الخبر سَرَى إلى بني المصطلق، وهم براَءُ مما رماهم به الوليد، بَعِيدون عما وصل مِنْ أمرهم إلى الرسول؛ إذ مَا بَرِحُوا مسلمين حَقًّا، قائمين على قواعد الإسلام صِدْقاً، ثم ألَّفوا وَفْدَهم، فذهب إلى الرسول، فألفاه متهيئاً للغزو، متحفِّزاً للمسير.

قالوا: يا رسول الله، سَمِعْنا برسولك حين بعثته، فخرجنا إليه لِنُكْرِمَه، ونؤدي إليه ما عندنا من الصدقة: فانشمر[3] راجعاً، ثم بلغنا أنه زعم إليكَ أنَّا خرجنا إليه لنَقْتُلَه، وأنا ارتَدَدْنَا عن الإسلام، وامتنعنا عن الزكاة، ولكننا ما كفرنا بالله مُنذ آمنَّا، ولا انسلخنا عن الإسلام منذ دخلنا فيه.

فوقف رسول الله ﷺ بين خَبَرِ الوليد وَخَبَرِهم لا يَقْضِي بأمر، ولا يَـفْصِلُ بحكم حتى نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ

---

(1) أصهر إلى القوم: تزوج منهم.

(2) إحن جمع إحنة: الحقد والضغن.

(3) انشمر: جدّ راجعاً.

فَنُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ[1]
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾[2].

(١) لعنتم: وقعتم بالعنت وهو الجهد والهلاك.

(٢) سورة: الحجرات، الآيتان: ٦ و٧.